

# الكاتب المصري



يناير ١٩٤٦

محرم ١٣٦٥

مجلد ١ — عدد ٤

## المعذبون في الأرض

[ إلى الدين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الدين يؤرقهم  
الخوف من العدل ، إلى أولئك وهؤلاء جميعاً أسوق هذا الحديث ] .

إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئني ؛ فإن فعلت ذلك  
فأنت ابني حقاً . قال الصبي وهو يبتسم لأمه التي كانت تحدثه هذا الحديث  
وهي تداعب خده : فإن لم أفعل فأين من أكون ؟

هنالك وجمت أم الصبي شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ،  
ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : إنك لطويل اللسان  
كثير الخصام ، ثم دسّت في يد الصبي قطعة من سكر وأعدت عليه قولها : إذا  
سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئني ، وإن فعلت ذلك فلك  
مثلها قبل أن تنام . قال الصبي وهو يقضم السكر قضمًا : أما الآن فنعم . ثم  
انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ؛ فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة  
في الإقليم ، وهم لم يُقبلوا أصفار الأيدي ، وإنما يحملون من الطُرف والهدايا  
شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في  
ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه

بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد و أول هذه الأصناف قد هيء ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقدفت الخبز في طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقُطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا في اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل في الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما أُلقي عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يتسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبير الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرت هي إلى هذه الأخطا من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها من حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس في الإبطاء بها بأس ولا جناح . ولكن الصبي لم ينبئ أمه بشيء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شغل عن التكبير الأولى وعن التكبير الأخيرة بأمر ذي بال . وقد فرغ الشيخ وضيغه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلتم به الضيف . وقد هم غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار غفلة أو إهمال . فمضى في حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، وأسرت إلى أمها فأنبأها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هي إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلفظون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأي ، قد اتخذ مرقبه في زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كثره ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات في جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجرد في ذلك تسلية وهوأ ، يتفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى . وقد جلس في زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعيبث بها في رفق مانحاً الشيخ وضيغه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبير الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ النسل إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر في زاويته ويمضي في قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذ رفيقه صالح مائل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدّمها إليه باسماً . وقد نظر الصبي إلى صالح فراعاه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي وقد انشق عن كتفيه فظهرت منه غليظتين نابتين ، والثوب على ذلك رث قدر يظهر من جسم الصبي أكثر مما ينبغي ، كأنه أسمال قد وُصل بعضها ببعض وصلًا ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع وليقال إن صاحبه لا يمضي به متجرداً عريان . ثم رفع الصبي رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظرات إلى ما حولهما ، تتخفضان حيناً إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التي تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمرّ بك وأحمل إليك هذه الأكام التي لم تتفتح بعد ، خذها إليك وضعها في إناء فيه شيء من ماء وانظر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فسترها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة . لم يقل الصبي لصالح شيئاً وإنما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال النظر إليها والتحديق فيها وقرّبها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها في فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلّب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وألنسى الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبا الذي كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يره بعد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من

بنيها وبناتها إلى طعامهم وافتقدت صاحبنا ذلك المهذار فأرسلت أخته تلتزمه في مكانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ في الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدري كيف يخلص من رفيقه أو لم يكن يجب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له في صوت خافت حزين : أجب ، إنك تدعى إلى العشاء . قال الصبي لصالح : وأنت هل تعشيت ؟ قال صالح : سأتعشى حين أبلغ الدار ، ونهض متثاقلاً وأدير يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي إلى أمه وفي يده تلك الزهرات . فلما رآته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه ، قال الصبي وفي صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح ابن الحاج علي . قالت أمه : ولم تعطه شيئاً ؟ قال الصبي : أعطيته ما بقي لي من قطعة السكر . قالت أمه : وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ قال الصبي مضطرباً : هممت ولكنني لم أجروء . قالت أمه : فامض في أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكذبجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يعد ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضي وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخدماً : هاأنا ، ماذا تريد ؟ قال الصبي : أريد أن تبقى لتتعشى معاً . ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما حول إلى رفيقه وسعى في أثره هادئاً مطرقاً كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكذب الصبي يغلط السبب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسياً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ؛ وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التي قدّمت للضيف . وأبت أخت الصبي أن تشارك الأسرة في عشاؤها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين ، حتى إذا فرغاً من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي إلى أمه راضياً . فقالت له وهي تمسح رأسه : إذا زارك رفيق لك في وقت العشاء فلا ينبغي أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك في الطعام . ثم قالت له بعد صمت قصير : هل تعلم أن صالحاً إنما حل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ قال الصبي : لا أعلم . قالت أمه : لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا

من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون في الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً ، واتخذ أزهاره هذه ليلة يلم بها في الدار ليقدمها إليك . قال الصبي : لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! قالت أمه : إذا خرجت من الكتاب غداً فاحمله على أن يصحبك فإن عندى من ثيابك ما يكسوه .

ثم انصرفت إلى بنيتها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها أنسيت أن تحرك الأرز حين ألقته في الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتذنى على تلك لأنها رفقت بالفالودج فلم تتركه سائلاً تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعق قطعاً ، ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقدة البغيضة التي لا تجعله سائناً ولا يسيراً ، وإنما صنعتها سواء سهلاً لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلو ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنما لتتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطهي والتي كان أباؤها يسمعون لها فيفرقون في ضحك متصل ، وإذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ أجابت أمه : ألم أقل لك إنه أحسن أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ! قال الصبي : فإنى أرى الأضياف يلمسون بجارتنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابي من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم . قالت : لأنك لست في حاجة إلى ذلك فلست محروماً . قال الصبي : فصالح محروم إذا ؟ قالت أمه متضحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه قالت أمه : لأن أباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على أبي صالح . قال الصبي : ولماذا ؟ قالت أمه : إنك لمكثار ، ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهي تقول خذيه إلى مضجعه فقد تقدم الليل وأن له أن ينام .

وأصبح الصبي فغداً على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام في الأسبوع . وقد يخظر للقارئ أن يسألني عن هذا الصبي ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن يكون ؟ ولكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه

الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي « ديدرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه ، أوجب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلى بهذه الأسئلة التي قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة متسقة حسنة البناء ملتزمة الأجزاء ، يأخذ بعضها برقاب بعض كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكني لا أحاول أن أضع قصة فأضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ؛ فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، والذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يبتكرون هذه الخطوب . لا أضع قصة فأضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ؛ لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخاطر لي فأملية ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فليتركه عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد القراءة فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخاطر لي الكلام وأن أملية وأن أذيعه ، وأن يجد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وتستطيع أن تصده عنها ، وأن يشعر القارئ أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف في الأدب وأن ينكره ، وأن يقبل من الأدب وأن يرفض ، وليس هذا كله بالشئ القليل . وما أحب أن يظن القارئ أني أتحمك فيه أو أتجنى عليه ؛ فأنا أبعدهم عن التحكم وأزهدهم في التجنى ، وأشهدهم للقارئ حياً وإكباراً ، ولكني لا أحب أن يتحكم القارئ فيّ ولا أن يتجنى عليّ ، ولا أن يخضعني لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوق . ويجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينني حين أكتب أنا ، ويقرأ هو . ولو أني استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبي وبيئته وعرفت أسرته إلى القراء لطلال في الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس في الحديث صبي واحد ، بل فيه إلى الآن صبيان ، أحدهما صالح هذا الذي يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبي الذي وجد عنده صالح هذا العشاء . ولا كن منصفاً ، فقد يكون من

حق القارىء أن أسمى له هذا الصبي الثاني ما دمت قد سميت له الصبي الأول ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم أبيه وصبي آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت في إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبي الثاني اسماً ، وما زلت أجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنينى ، وإنما كانت الأحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعنينى . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط ، لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيراً ، يُشعر الناس بأن مصر هي بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارىء هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضى يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذي لا يجحد ما ينفق ، والذي يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذلك الصبي الذي لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه « أمين » ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتّاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جداً من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فهو موجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذي لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة أو على الكتّاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغي أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل . لأن من حقه أن يتناول الطعام في إبانة ، وأن يأخذ بقسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي أو هذا الفتى الذي اتفقنا على أن اسمه « أمين » موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يُحصى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً في كل قرية وفي كل مدينة . وهو من أجل ذلك موجود لأن عدده محدود ، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارىء وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت

عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألني في صوت فاتر ساخر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن في الإطالة بهذا الكلام الكثير الذي لا يغني ولا يفيد ! معذرة يا سيدي القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يعني كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فانت تلتقي في كل يوم ألفاً ، صالح وصالح دون أن تحس لو احد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً ؛ قد كثر لقاءك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحُرمان شيئاً تلمئن إليه كما تلمئن إلى الصحة والعافية ، ولا تلتفت إليه كما أنك لا تلتفت إلى الهواء الذي تننفسه والنور الذي تهتدي به . وترى أميناً أو آمينين أو أمناء بين حين وحين فيملاً كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير أن أفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذي ملامصر نعمة وخيراً ، وملاّت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التي رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور على أن أحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران في نفسك من تهالك على النقد وجب للاستطلاع .

أوثر أن أحدث إلى قلبك وأن أفتك إلى صالح هذا الذي وُجِد وأُسرف في الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعل حين أفتك إلى صالح إنما أفتك إلى نفسك . وما أحب أن تفضب ولا أن تثور ؛ فما أردت ، وما ينبغي أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت في يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن في حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ؛ فصالح صورة البؤس والشقاء والحُرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ؛ وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التي تأتي من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذي يمزق البطون والإعدام الذي يمزق الثياب ويظهر من ثناياه الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شرّاً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإني لأعرف قوماً كثيرين

تحتل أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً أي بؤس وشقاء أي شقاء ، ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذي تصنفه أيدي الحسان تصنيفاً في الحواضر والمدن وسيلة إلى شيء يصيبونه عند من قد يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .



مهما يكن من شيء فقد غدا الصبي الذي اتفقنا على أن اسمه «أمين» على كتابه كما تعود أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم في الجذ والهزل وفي الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد أنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً في كثير جداً من القلق والخوف ، ثم في كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم في كثير جداً من الألم والحزن . فقد «سمع» سيدنا الضير يسأل عريفة البصير : هل تفقدت الاختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سامت لك كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح ابن الحاج علي فإنه قد ضاع ، وما أشد حاجة هذا الفتى إلى التأديب فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع العصر إلا لينغمس في الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألني القراء كما كانوا يسألون ذلك الكاتب الفرنسي الذي ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الاختام ما هي ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ؛ فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يعرفوا قصة الاختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من الخطوب . كانت قصة الاختام هذه تمثل في الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشد القيظ ويجب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا في الماء ، وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق في العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى «سيدنا» أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقوم ليصدمهم عن هذه الرياضة

الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كاد الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التي كانت تسمى الختم وغمسها في مادة حمراء وختم بها أنفاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة في ماء النهر أو في ماء القناة . وكان زوال الآفة التي يتركها الخاتم في نخذ الصبي أو الفتى دليلاً على أنه قد خالف الأمر وقارف هذا الإثم العظيم . فلم يكن بديلاً إذاً من تفقد هذه الأختام في كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبي أو الفتى إذا بحيث آفة الختم على نغذه قبل الأوان . ولست أدرى أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف في الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن « سيدنا » قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم في غير اكرثات ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون إليه من هذه الشُّرف اليسيرة التي يحملونها من بيوتهم يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف . وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة . ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى أمره لسيدنا ، ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أتريه . ولأمرنا امتلاً قلبه نجاة حباً لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ، فلم يكذب العريف البصير يغري به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذي فقد ختمه ، وإنما فقدته الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أدبرت « الفلقة » على ساق صالح وعمل السوط في رجله حتى دميتا ، ثم أدبرت « الفلقة » على ساق أمين ومس السوط رجله مساً خفيفاً لم يدمها ولكنه علم أميناً أن الشجاعة والصرامة وقول الحق خصال لا تحسن في جميع المواطنين . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوها عدواً ، وحملوا يكيدون لها ويمكرون بهما ويذيقونها من

العبث فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسليية وتعزية . ولم تكذب أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكذب صالح يراه حتى 'جن جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى « الفلقة » التي دارت على ساقيه والسوط الذي مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء وليغمسن نفسه فيه ، وليضعين آية الختم الجديد ، وليتعرضن لوشاية العريف ، وغضب سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر . قالت له أم أمين لا بأس عليك ، فسأطلب من سيدنا أن يعفياك من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبي فرحاً مرحاً مجبوراً . وقال أمين لأمه ألا تنبئيني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ولم يضربني أنا إلا عابثاً؟ قالت : لأن صالحاً أضع الختم وخالف الأمر وانغمس في الماء فكان ذنبه عظيماً يستحق عقاباً عظيماً . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام آرابك ما قلت في العريف ، فكنت خليقاً أن تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبي : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق ! قالت أمه وهي تضحك : فإن الحق لا يقال في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التي يقال فيها الحق والمواطن التي يقال فيها الباطل؟ قالت أمه وهي تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذي جمعته في زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعب به وتحدث إليه ، وأحدث من الضجيج والعجيج ماشاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسمى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والهدايا؟ قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلاً عن أن يجد ما يهدي إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل علي . ولكن الصبي لم يعض لشأنه وإنما مضى في الإقبال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرتة إنذاراً كاد يبكي له ، ثم رحمته فوضعت في يده قطعة

من النقد وهي تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى قال الصبي مبتهجاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ، لأن صالحاً لم يذهب إلى الكتاب من غده . وقد وقع في نفس الصبي شيء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلمّ بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكده يفرغ من غذائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش بعض هذا السخف الذي يحبه الصبية وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك العريف في أنه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل عليه ذات صباح كثيراً محزوناً لا يكاد قدّه يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو في ثوبه ذلك البالي القدر . وقد تلى أمين رفيقه مبتسماً له حفيماً به مستتبكاً عن غيبته تلك التي طالت . وهم صالح أن يجيب ولكن عوته احتبس في خلقه وجرت على خديه دموع منسجمه غزار ، فهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يمسه سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبهم بالأيدي حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه إلى كثير من الحمة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذي أهدهت أمه إلى رفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملح لهذا الرفيق البائس . خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التي كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر في الجوا ألحانها العذاب . وانغمس في القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام في القناة كأحسن ما تمود أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، قد امتلأت نفسه رضا وامتلاً قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الراضية وقلبه السعيد على جسمه جمال

غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل في ثوبه الجديد وكاد السرور أن يدفعه إلى شيء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه في بعض الاعتدال ، فرضى عن نفسه في دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يحظر في ثوبه الجديد ، وقد طوى ثوبه البالي القذر وحمله بين ذراعه وجنبه متأذياً متكرهاً لاحتاله ، ولو استطاع لتركه في بعض الطريق ، ولكنه كان أذكي من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالي إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك في أن القارئ سيقف عند هذا الموضوع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألني أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيمًا ينعم بما يختلس من حب أبيه سرّاً ويشقى جهرة بما يُصَبُّ عليه من بغض هذه الضرة التي قامت مقام أمه في البيت ؟ ولست أشك في أن القارئ سيضيف إلى هذا السؤال ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ ، فيقول في نفسه : لو أن الكاتب سلك في قصته الطرق الممهدة والسبل المعبدة التي رسمها النقاد للقصة لعرّف إلينا صالحاً في أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التي لم تكن في حاجة إليها . ولكنني أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أني لا أضع قصة ، وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التي يبينون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذي يلهج به النقاد . ولو أني بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ، ولقال بعضهم : تجاوزت حديث الطوفان ووصلت إلى غايتك فلسنا من الغباء والفقلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحاً يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشيء

الذي لا أشك فيه ولا ينبغي أن يشك فيه القارئ هو أن صالحاً لم يكن يتيماً ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغي أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسواء رضى القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك لأنى أنا أريد ذلك ، وليس يعيننى ما يريد غيرى من الناس ؛ فأنا الذى اخترع صالحاً من لاشئ ، أو أخذ صالحاً من عرض الطريق لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود . موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود ، والشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال . فأنا إذاً وحيدى - كما كان يقال أيضاً - أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن ادعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ؛ لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ، ولأن القارئ يضطر إلى أن يتلقى حديثى كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى رسمتها ؛ لأنى على حريتى فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ . وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أباً صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحاً بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكرة الخلق بعيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشئ ولا ترضى عن شئ ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالحاً فى كنفه . وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع

لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه . وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع أن يعيش إلا كما يعيش الناس ، فاضطر إذاً أن يتخذ لنفسه امرأة تربي له صالحاً وتمنحه غيره من الولد . واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذي احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضي بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجري على هذا النحو في ذلك العهد القديم ! وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثاني إلى أن يطلقها بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لنفس الأسباب التي فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء . ولكن حظها في هذا الطلاق الثاني كان حسناً أو سيئاً لا أدري ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلي قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشيء المحقق هو أن خديجة لم تكذب تطلق حتى مات زوجها وترك لها ابنها سعيداً تربيته كما نشأ أو كما تستطيع . ولم تربّه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحببت . وقد زهد الأزواج في هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حيناً والترمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فحُتت جنوناً هادئاً رقيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت « خديجة المفترقة » وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو في ظل هذا الجنون الهاديء الخفيف كان ابنها صالح ينشأ في ظل هذه الضرة التي أظهرت حباً له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضييقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين في حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر في رعاية الحب الجنون .

حدثني أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله في أول هذا الحديث فتضيق بي وبصالح وبأمين وبالجملة التي تحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذي اخترته وأن أحدثك بكل شيء حين يجين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستماري ،

وستذهب في عنادك ومرائك مذاهب محتلمه ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذي اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذي آثرته ، واتهمت منذ حين إلى أن صالحاً قد استحم في القناة ودخل في ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذي لبسه مهدياً ثوبه القديم الذي ضمه بين ذراعيه وجنبه . ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ورأت ثوبه القديم وضافت به ، ثم أدارت بصرها في الحجرة فرأت ابنها وبناتها قد اتخذوا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهر والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح في ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنها في ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عينها إليها وقد ارتسمت في نفسها الخطئة واضحة جلية ولكنها بشعة بفيضة ؛ فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقي من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً ، فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً ، وجرّد من ثوبه الجديد الجميل ورّد إلى ثوبه القديم البالي ، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتاب من غده ، وأقام في الدار كئيباً في زاوية من زواياها يهمل في ازدراء ويمرض في عنف ، حتى إذا استطاع أن يمشی على قدميه سعى إلى الكتاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشئ كيف يقضى في هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالي الذي كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادي المطرد . فهو إذاً قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه في ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرهما ، وإنما فرغ لصاحبه يعزّيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسوه به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجري دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير . فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعية والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وإنما الحياة تمضي كما تريد هي لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتاب مساء ذلك اليوم . فلم يريا حين بلغا ذلك المكان الذي تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى

الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال إلا جماعة مزدحمة تتصاحج ويدعو بعضهما بعضاً ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظرأ راعهما ورووعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلمم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر في الفضاء ضحكا عريضا . فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار . كما كان يقال في تلك الأيام . وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك . وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهم أن يقف ولكنه آثر أن يمضي مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست أدري ما صنع الرفيقان ، ولكنني أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنها في يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أميناً مذعوراً يكاد ينقذ من البكاء ، فسح على رأسه وقبل بين عينيه وقال له في صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلاً ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكنني أنظر إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ، ومع ذلك فلم أر صالحاً حين أكله القطار .